

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه
أجمعين أما بعد :

قال رحمه الله تعالى :

فصلٌ (في صفته الظاهرة) ، وقد صنَّف العلماء في هذا الباب ، فأحسن من جمع في ذلك الإمام أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي رحمه الله تعالى ، أعني كتاب الشمائل ، وتبعه العلماء والأئمة . وقد استوعب ذلك بأسانيده ، وشرحه مطولاً الحافظ أبو القاسم بن عساكر رحمه الله تعالى ، وشيخنا الإمام الحافظ أبو الحجاج المزني في تهذيب الكمال . وقد جمع الشيخ أبو زكريا النووي في تهذيبه فصلاً مختصراً فيه فقال : كان ﷺ ليس بالطويل البائن ولا القصير ، ولا الأبيض الأمهق ، ولا الآدم ، ولا الجعد القلط ولا السبط . وتوفي وليس في رأسه عشرون شعرة بيضاء .

هذا فصلٌ عقده الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى في ذكر صفة النبي عليه الصلاة والسلام الظاهرة ، والمراد بالصفة الظاهرة : أي الخَلْقَة والهيئة والقوام الذي كان عليه صلوات الله وسلامه عليه من حيث الطول أو القصر ، من حيث لون البشرة ، من حيث صفة العين ، إلى غير ذلك من صفاته الشريفة وصورته الحسنة البهية صلوات الله وسلامه وبركاته عليه . وقد أعطاه الله ﷺ حُسن الصورة وجمال الهيئة وكمال المنظر وحُسن القوام صلوات الله وسلامه عليه . قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : " وكان خلقه وصورته من أكمل الصور وأتمها وأجمعها للمحاسن الدالة على كماله " ؛ فأعطاه جل وعلا الجمال والكمال والحسن والبهاء في هيئته الظاهرة وصورته الخَلْقِيَّة ، كما أنه ﷺ أتم له أخلاقه وآدابه وتعبده لله ﷻ ، فكان أعظم الناس عبادةً لله وأعظم الناس وأكملهم خلقاً وأدباً صلوات الله وسلامه عليه ، وفي الوقت نفسه أعطاه الله ﷻ أحسن صورة وأكمل هيئة وأجمل منظر في بهاء وحُسنٍ عظيم ، يأتي ذكر شيء من هذه الأوصاف عن أصحاب النبي الكريم ﷺ الذين أكرمهم الله ﷻ بروية طلعت البهية وصورته الحسنة الجميلة صلوات الله وسلامه عليه .

وبدأ ابن كثير رحمه الله تعالى كلامه في هذا الفصل بالإشارة إلى كتاب الشمائل للإمام الترمذي رحمه الله تعالى وأثنى عليه ثناءً عاطراً هنا ، كما أنه أيضاً أثنى عليه ثناءً عاطراً في كتابه البداية والنهاية وذكر أنه من أحسن وأجود ما أُلِّف في هذا الباب .

وابن كثير رحمه الله له زوائد على كتاب الشمائل ؛ ففي البداية والنهاية اختصر رحمه الله كتاب الشمائل اختصاراً جيداً وأورد الأحاديث التي فيه وأضاف إضافات وفوائد تتعلق بشمائل النبي الكريم عليه الصلاة والسلام لم ترد في كتاب الشمائل ؛ جمعها رحمه الله تعالى وأوردها في كتابه البداية والنهاية .

وكتاب الشمائل للإمام الترمذي رحمه الله تعالى كتاب عظيم في بابه جمع فأوعى في هذا الباب وأحسن وأجاد رحمه الله تعالى ، وهو كتابٌ حافل وعظيم ونافع وجامع ويُصحح المسلم وطالب العلم بقراءته والاستفادة من مضامينه العظيمة ، وعندما تقرأ ذلك الكتاب وتطلع على تلك الصفات والشمائل والأخلاق العظيمة والآداب العالية للرسول الكريم عليه الصلاة والسلام تزداد حباً له عليه الصلاة والسلام وحرصاً على سنته واتباعاً لهديه الكريم صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

قال : ((وتبعه العلماء والأئمة)) ؛ أي في هذا الباب فألفت في شمائل النبي عليه الصلاة والسلام مؤلفات عديدة ، لكن أهل العلم يرون أنّ من أحسن وأجود وأتقن ما أُلِّف في هذا الباب كتاب الترمذي رحمه الله تعالى فقد أحسن فيه وأجاد وأفاد .

قال : ((وقد استوعب ذلك بأسانيده)) ؛ يعني استوعب ما يتعلق بباب الشمائل بأسانيده رحمه الله .

((وشرحه مطولاً الحافظ أبو القاسم ابن عساكر)) ؛ أي في كتابه التاريخ .

((وشيخنا المزي في كتابه تهذيب الكمال)) ؛ والإمام المزي رحمه الله تعالى في أول كتابه (تهذيب الكمال) أفرد فصلاً في هذا وأورد بعض الأحاديث في صفات النبي عليه الصلاة والسلام وشمائله صلوات الله وسلامه عليه .

ثم قال الإمام ابن كثير رحمه الله : ((وقد جمع الشيخ أبو زكريا النووي رحمه الله في تهذيبه فصلاً مختصراً فيه)) ؛ الإمام النووي رحمه الله له كتاب قيّم عنوانه (تهذيب الأسماء واللغات)

أفرد فيه رحمه الله فصلاً ذكر فيه خلاصةً عظيمة جداً ودقيقة ومنتقاة بدقة من الأحاديث العديدة الواردة في الشمائل .

وطابقتُ بين تلخيص النووي رحمه الله تعالى وما أورده الإمام ابن كثير هنا ؛ فوجدت ابن كثير نقل كلام النووي كاملاً بنصّه دون زيادة ولا نقصان من كتابه تهذيب الأسماء واللغات ، وطابقتُ بين ما لحّصه الإمام النووي رحمه الله وبين الأحاديث التي أوردها الإمام الترمذي رحمه الله في كتابه الشمائل فوجدتُ أن الإمام النووي رحمه الله انتقى وأحسن الانتقاء وأجاد في الاختصار ، فاختصر شمائل النبي أو أوصافه الخلقية عليه الصلاة والسلام اختصاراً دقيقاً وافيةً وليس مُحللاً ، وأتى على أمهات الأوصاف الثابتة عن النبي عليه الصلاة والسلام في هذا الملخص البديع والذي نقله بتمامه الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى هنا .

قال : ((كان ﷺ ليس بالطويل البائن)) ؛ يعني : ليس بالطويل شديد الطول ، مرتفع الطول ، زائد الطول ، مفرط الطول ، وإنما طوله عليه الصلاة والسلام طول معتدل ، ولهذا قال : ((ليس بالطويل البائن ولا القصير)) ولم يذكر عند قوله ((القصير)) المقابل ، فلم يقل وليس بالقصير المفرط أو الشديد القصر ؛ لأنه عليه الصلاة والسلام إلى الطول أقرب كما جاء بذلك مصرحاً به في بعض الروايات الواردة في ذكر طول النبي عليه الصلاة والسلام . فكان عليه الصلاة والسلام ربعة من الرجال ، يعني متوسط في قوامه ، فقوله : ((ليس بالطويل البائن ولا القصير)) ؛ يعني قوامه وسط لكنه إلى الطول أقرب ﷺ .

قال : ((ولا الأبيض الأمهق ، ولا الآدم)) ؛ الحديث هنا على لون البشرة ، فكان عليه الصلاة والسلام أبيض الوجه لكن البياض ليس بياضاً أمهق يعني بياضاً شديداً ، ولم يكن أيضاً في الوقت نفسه أسمر ، وإنما بياض مُشرب بحمرة كما جاء في بعض الأحاديث ، فكان على أحسن ما يكون جمالاً في لون بشرته ﷺ .

قال : ((ولا الجعد القطط ولا السبط)) ؛ ثم ذكر ما يتعلق بشعر رأسه عليه الصلاة والسلام وأنه كما أن فيه توسط من حيث الطول والقصر ولون البشرة ، فيه أيضاً توسط في الشعر ؛ فلم يكن بالجعد القطط - والجعودة في الشعر معروفة وهي تلوي الشعر وتلففه . والقطط : أي شديد الجعودة - ولا السبط أي المسترسل الذي ليس فيه شيء من التكسر والتلوي ؛ وإنما كان شعره ﷺ بين الجعودة والسبوط . بعض الشُّراح ومنهم الحافظ في الفتح

قال : "ليس بالجعد القطط مثل شعور السودان ولا بالسبط مثل شعور الهنود " ، ومقصود أهل العلم بذلك التوضيح وتقريب المعنى ليس إلا .

قال : ((وتوفي وليس في رأسه عشرون شعرة بيضاء)) ؛ هذا فيه حديث عن الشيب ؛ هل كان في شعره عليه الصلاة والسلام شعر الرأس واللحية شيب ؟ فقال أنس رضي الله عنه : ((فَتَوَفَّاهُ اللَّهُ وَلَيْسَ فِي رَأْسِهِ وَلِحْيَتِهِ عِشْرُونَ شَعْرَةً بَيْضَاءَ)) ؛ توفي عليه الصلاة والسلام عن ثلاث وستين سنة وشعر الشيب الأبيض في لحيته ورأسه يُعد بأصابع اليدين يعني لا يتجاوز العشرين ، وكان هذا الشيب في الصدغين - والصدغ معروف : الشعر الذي بين الأذن والعين - فكان عليه الصلاة والسلام في صدغيه بعض الشيب ، وفي مفرق رأسه كان عليه الصلاة والسلام فيه أيضاً شعرات بيضاء ، وفي لحيته عليه الصلاة والسلام تُنفُ يسيرة ، وكان إذا اذَّهن عليه الصلاة والسلام بالطيب يُغطي لون الطيب هذه التنتف القليلة التي كانت شعراتٍ قليلة بيضاء في لحيته صلوات الله وسلامه عليه وهذه الأوصاف كلها جاءت في الصحيحين من حديث أنس ابن مالك رضي الله عنه .

قال رحمه الله :

[وكان حسن الجسم بعيد ما بين المنكبين ، له شعر إلى منكبيه ، وفي وقت إلى شحمة أذنيه ، وفي وقت إلى نصف أذنيه ، كث اللحية ، شثن الكفين ، أي غليظ الأصابع ، ضخم الرأس والكراديس ، في وجهه تدوير ، أدعج العينين طويل أهدابهما ، أحمر المآقي ذا مسرُبة ، وهي الشعر الدقيق من الصدر إلى السرة كالقضيب] .

قال رحمه الله تعالى : ((وكان حسن الجسم)) ؛ أي أن خلقته في جسمه عليه الصلاة والسلام معتدلة وأعضاؤه متناسبة ، فالأعضاء في قوامها وهيئتها وتناسبها في غاية التناسب . ((وكان بعيد ما بين المنكبين)) ؛ والمقصود بذلك أعلى الظهر ، فأعلى ظهره عليه الصلاة والسلام فيه شيء من العُرض ، والمنكب : هو مجمع العضد والكتف ، فبعيد بين المنكبين : أي أنه عريض أعلى الظهر وبعيد المسافة بين هذا المنكب والمنكب الآخر .

قال : ((له شعر إلى منكبيه ، وفي وقت إلى شحمة أذنيه وفي وقت إلى نصف أذنيه)) ؛
ومن المعلوم أن الشعر مع الأيام يطول ، فمرة في طوله يكون وصل إلى شحمة الأذن ، ومرة
يزيد على ذلك ، ومرة يضرب الشعر منكبيه صلوات الله وسلامه عليه .

قال : ((وكان كث اللحية)) ؛ يعني شعر لحيته عليه الصلاة والسلام كثيف ، والصحابة
ﷺ وهم يصلون وراءه في الصلاة السرية كانوا يعرفون أنه يقرأ من اهتزاز شعر لحيته عليه
الصلاة والسلام .

قال : ((شثن الكفين)) وفسّر ذلك قال : ((أي غليظ الأصابع)) ؛ في أصابعه شيء
من الغلظ يعني الضخامة أو الكبر اليسير .

((ضخم الرأس والكراديس)) ضخم الرأس : أي عظيم الرأس عليه الصلاة والسلام .
والكراديس : هي رؤوس العظام ؛ فرؤوس العظام في بدنه الشريف عليه الصلاة والسلام
كانت عظيمة .

قال : ((وفي وجهه تدوير)) أي في وجهه استدارة صلوات الله وسلامه عليه ، لكن لم يكن
مستدير الوجه غاية الاستدارة بل كان بين الاستدارة والإسالة وهو أقرب ما يكون للاستدارة
كما ذكر أهل العلم أخذاً من الروايات التي وردت في هذا الباب .

قال : ((أدعج العينين)) أي شديد سواد العينين ، فالسواد الذي في عينيه ﷺ سوادٌ
شديد .

قال : ((طويل أهدابهما)) ؛ والمراد بالأهداب : الشعر الذي ينبت على جفن العين ،
فكان عليه الصلاة والسلام طويل أهدابهما .

قال : ((أحمر المآقي)) والمآقي : هي مآقي العين ، وهي الجانب الذي في العين القريب
من الأنف - أما طرف العين وجانبها الآخر الذي من جهة الأذن يُقال له اللحاظ - فكان
عليه الصلاة والسلام أحمر المآقي .

قال : ((ذا مسربة)) ثم شرحها قال : ((وهي الشعر الدقيق من الصدر إلى السرة
كالقضيب)) ؛ فكان عليه الصلاة والسلام في صدره شعر نازل من أعلى الصدر - في
المنطقة التي هي في الوسط إلى أن يصل إلى السرة - كالعود .

قال رحمه الله :

[إذا مشى تقلع كأنما ينحط من صيب - أي يمشي بقوة ، والصبب : الحدور - ، يتلألاً وجهه تلالؤ القمر ليلة البدر ، كأن وجهه كالقمر ، حسن الصوت ، سهل الخدين ، ضليع الفم ، سواء البطن والصدر ، أشعر المنكبين والذراعين وأعالي الصدر ، طويل الزندين ، رحب الراحة ، أشكل العينين ، أي طويل شقهما ، منهوس العقبين ، أي قليل لحم العقب ، بين كتفيه خاتم النبوة كزر الحجلة وكبيضة الحمامة . وكان إذا مشى كأنما تطوى له الأرض، ويجدُّون في لحاقه وهو غير مكترث] .

ثم قال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى فيما نقله عن الإمام النووي رحمه الله تعالى : ((إذا مشى ﷺ تقلع كأنما ينحط من صيب ، والصبب الحدور)) ؛ يعني المكان المنحدر النازل ؛ فكان عليه الصلاة والسلام إذا مشى يمشي مشياً قوياً - خطواته ورفع له قدمه ونقله لها من الأرض ينهضها بقوة - مما يدل على قوة جسمه صلوات الله وسلامه عليه .

قال : ((يتلألاً وجهه تلالؤ القمر ليلة البدر ، كأن وجهه كالقمر)) ؛ وهذا الوصف أيضاً جاء عن غير واحدٍ من الصحابة في ذكر وجه النبي عليه الصلاة والسلام وأن وجهه عليه الصلاة والسلام في تلالئه وضيائه وبياضه ووضاءته أحسن من القمر صلوات الله وسلامه وبركاته عليه .

قال : ((حسن الصوت)) أي كان أعطاه الله ﷻ صوتاً حسناً بهياً جميلاً طيباً .

((وكان سهل الخدين)) ؛ أي سائل الخدين غير مرتفع الوجنتين ، أحيانا عند بعض الناس يكون الخد مرتفع وضخم وفيه نتوء ، فالنبي عليه الصلاة والسلام ليس خده ناتئاً أو مرتفعاً أو فيه بروز أو نحو ذلك .

قال : ((ضليع الفم)) ؛ قيل في معناه : أي عظيم الفم ، وقيل : أي واسع الفم .

قال : ((سواء البطن والصدر)) ؛ يعني ليس أحدهما ناتئاً أو زائداً عن الآخر ، وإنما بطنه وصدرة عليه الصلاة والسلام سواء ، فليس صدره متقدماً على بطنه ولا أيضاً بطنه عليه الصلاة والسلام متقدماً على صدره .

قال : ((أشعر المنكبين والذراعين وأعالي الصدر)) ؛ يعني هذه الأماكن الثلاثة كان فيها شعر .

((طويل الزندين)) ؛ الزندين : هما أسفل الذراع ، فكان طويل الزندين .

((رجب الراحة)) ؛ أي واسع الراحة ، والراحة : هي راحة اليد .

((أشكال العينين)) ثم شرح ذلك قال : ((أي طويل شقهما)) ؛ وهذا التعريف نقله المصنف عن سماك ابن حرب راوي الحديث عن جابر ابن سمرة ، ففسر سماك ابن حرب أشكال العينين أي طويل شقهما .

قال القاضي عياض : " هذا وهم من سماك بإتفاق العلماء وغلطٌ ظاهر ، وصوابه ما اتفق عليه العلماء ونقله أبو عبيدة وجميع أصحاب الغريب أن الشُّكْلَة حمرة في بياض العينين وهو محمود " . فعليه فيكون قوله ((أشكال العينين)) أي : في بياض عينيه صلوات الله وسلامه عليه شيء يسير من الحمرة ، وهذا وصف محمود ومرّ معنا قريباً أحمر المآقي .

قال : ((منهوس العقبين)) ؛ العقبان : هما مؤخر القدمين . ومعنى منهوس : أي قليل لحم العقب كما شرحه ابن كثير هنا نقلاً عن سماك ابن حرب ((قليل لحم العقب)) .

قال : ((بين كتفيه خاتم النبوة)) ؛ خاتم النبوة : هو بُضْعَةٌ زائدة بارزة بين كتفيه ﷺ وهي إلى كتفه الأيسر أقرب ، ومثّلت بزر الحجلة ، والحجلة طائر معروف ، والزر بيض لها ، ذكر ذلك الترمذي رحمه الله تعالى .

يقول القرطبي رحمه الله في كلام له مختصر نفيس عن خاتم النبوة : " اتفقت الأحاديث الثابتة على أن خاتم النبوة كان شيئاً بارزاً أحمر عند كتفه الأيسر قدره إذا قُلِّلَ قدر بيضة الحمامة ، وإذا كُبِّرَ جُمع اليد " ، واتفقت الأحاديث على أنه شيء بارز أحمر ، وأيضاً جاء في بعض الأحاديث أن حوله شعرات .

وبعض الذين أسلموا ومنهم سلمان عرفوا النبي ﷺ بأشياء منها خاتم النبوة بين كتفيه وكان بعضهم يحرص أن يقرب منه ويتحين الفرصة أن يرى ، وكان عليه الصلاة والسلام يعرف ذلك من حال بعضهم فيرفع له إزاره ليرى خاتم النبوة.

قال : ((وكان إذا مشى كأنما تطوى له الأرض ، ويجذون في لحاقه وهو غير مكترث)) ؛ جاء في حديث أبي هريرة ﷺ قال : ((مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَسْرَعَ فِي مَشْيَيْهِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَأَنَّهَا الْأَرْضُ تُطْوَى لَهُ إِنَّا لَنُجْهِدُ أَنْفُسَنَا وَإِنَّهُ لَغَيْرُ مُكْتَرٍ)) يعني يمشي ﷺ مشيته العادية أو الطبيعية غير مكترث ، وعندما يمشون معه عليه الصلاة والسلام يجهدون أنفسهم حتى يسايروه ﷺ في مشيه .

قال رحمه الله :

[وكان يسدل شعر رأسه ثم فرقه ، وكان يرحله ، ويسرح لحيته ، ويكتحل بالإثمد كل ليلة ، في كل عين ثلاثة أطراف عند النوم] .

قال رحمه الله تعالى : ((وكان يسدل شعر رأسه ثم فرقه ، وكان يرحله ، ويسرح لحيته)) ؛ وهذا فيه ذكر عنايته عليه الصلاة والسلام بشعر رأسه وشعر لحيته ، كان يرحله ويسرجه صلوات الله وسلامه عليه ، وكان يسدل شعر الرأس ثم بعد ذلك جعله فرقتين ، جاء في الزاد للعلامة بن القيم رحمه الله قال : " كَانَ أَوْلَا يَسْدُلُ شَعْرَهُ ثُمَّ فَرَقَهُ ، وَالْفَرْقُ أَنْ يَجْعَلَ شَعْرَهُ فِرْقَتَيْنِ كُلِّ فِرْقَةٍ ذُوَابَةٌ ، وَالسَّدْلُ أَنْ يَسْدُلَهُ مِنْ وَرَائِهِ وَلَا يَجْعَلُهُ فِرْقَتَيْنِ " .

قال : ((ويكتحل بالإثمد)) ؛ الإثمد : حجر معروف أسود يضرب إلى الحمرة وتكحل به العين . وجاء عنه عليه الصلاة والسلام الحث على كحل العين بالإثمد ، وبين عليه الصلاة والسلام أنه يجلو البصر ويثبت الشعر الذي في أهداب العينين فله فوائد عظيمة .

فكان عليه الصلاة والسلام يعني بالاكتحال بالإثمد ((كل ليلة في كل عين ثلاثة أطراف)) ؛ يعني إذا أتى بميل المكحلة يُمره على كل عين ، اليمنى ثلاثة أطراف واليسرى أيضاً ثلاثة أطراف فيوتر في كل عين ، وفي الوتر في الاكتحال جاء في المسند أنه عليه الصلاة والسلام قال : ((إِذَا اكْتَحَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَكْتَحِلْ وَتَرًا)) فكان عليه الصلاة والسلام يوصي بذلك ويفعله ﷺ .

قال : ((عند النوم)) ؛ والاكتحال بمعنى أن يكتحل الإنسان وينام على إثر الاكتحال أنفع ؛ لأن العين تشتمل على الكحل وتبقى ساكنة غير متحركة فتتم الفائدة بالاكتحال حينئذ ، وأيضاً في الوقت نفسه يسلم من أيّ مضرة ، ولهذا قال ابن القيم رحمه الله عن الاكتحال عند

النوم قال : " وَلَهُ عِنْدَ النَّوْمِ مَزِيدٌ فَضْلٍ ؛ لِاشْتِمَالِهَا - أَيِ الْعَيْنِ - عَلَى الْكُحْلِ وَسُكُونِهَا عَقْبِيهِ عَنِ الْحَرَكَةِ الْمُضِرَّةِ بِهَا " .

قال رحمه الله :

[وكان أحب الثياب إليه القميص والبياض والحبرة ، وهي ضرب من البرود فيه حمرة ، وكان (كُمٌ) قميصه ﷺ إلى الرسغ ، ولبس في وقت حلة حمراء وإزاراً ورداء ، وفي وقت ثوبين أخضرين ، وفي وقت جبة ضيقة الكمين ، وفي وقت قباء ، وفي وقت عمامة سوداء ، وأرخى طرفها بين كتفيه ، وفي وقت مرطاً أسود أي كساء ، ولبس الخاتم والخف والنعل . انتهى ما ذكره] .

قال رحمه الله : ((وكان أحب الثياب إليه القميص)) ؛ القميص معروف : ثوبٌ محيظٌ له كُمَّان ، وهو من أفضل الثياب وأحبها إلى رسول الله ﷺ ؛ لأنه مريح في لبسه وأيضاً مريح في تحرك الإنسان به ، والذي عليه أكثر الإخوة الآن هو القميص .
((والبياض)) ؛ يعني اللون الأبيض ، فكان هذا اللون أحب ألوان الثياب إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وكان يلبس كما سيأتي غير البياض ، لكن كان أحب ألوان الثياب عنده عليه الصلاة والسلام البياض .

((والحبرة)) على وزن عِنْبَةٍ . وهي نوع من الثياب فيه تحبير أي فيه تقليص .

قال : ((وهي ضرب من البرود)) ؛ البرود : هي الثياب .

((فيه حمرة)) ؛ يعني ليست بيضاء خالصة وإنما فيها تقليص بشيء من الحمرة .

قال : ((وكان كُمٌ قميصه ﷺ إلى الرسغ)) ؛ الرسغ معروف وهو : المفصل بين الكف والساعد ، فكان عليه الصلاة والسلام كَمَّهُ يصل إلى رسغه ، وهذا جاء في حديث أسماء بنت يزيد رضي الله عنها .

قال : ((ولبس في وقت حلة حمراء)) ؛ وليس المراد بحلة حمراء أي أنها خالصة الحمار وإنما معها لون آخر ، وفي هذا يقول ابن القيم رحمه الله : " غَلِطَ مَنْ ظَنَّ أَنَّهَا كَانَتْ حَمْرَاءَ بَحْتًا لَا يُخَالِطُهَا غَيْرُهُ ، وَإِنَّمَا الْحُلَّةُ الْحَمْرَاءُ بُرْدَانِ بِمَائِيَّانِ مَنْسُوجَانِ بِخُطُوطِ حُمْرٍ مَعَ الْأَسْوَدِ كَسَائِرِ

البُرودِ اليمينية وهي معروفة بهذا الاسم باعتبار ما فيها من الخطوط الحمراء وإلا فالأحمر البحث منهى عنه أشد النهي " . الأحمر البحث الخالص الناقع الذي ليس فيه لون آخر سواد أو بياض منهى عنه أشد النهي لكن إذا كان أحمر مع أبيض مثل الشماع هذا لا يُنهى عنه قال : ((وإزاراً ورداء)) ؛ لبس عليه الصلاة والسلام الإزار والرداء ، والإزار والرداء معروف وهو الذي يلبسه المحرم في حجه لبيت الله الحرام ؛ الإزار : ما يُلف به جزء البدن الأسفل ، والرداء : ما يضعه المحرم على عاتقيه ويرمي بأحد أطرافه على العاتق الآخر ، فيكون ملتفاً على جزء بدنه الأعلى .

وعرفنا أن أحب الثياب إليه عليه الصلاة والسلام القميص لكنه أيضاً كان يلبس في بعض الأوقات الإزار والرداء .

وقال أيضاً : ((وفي وقت ثوبين أخضرين)) ؛ لبس ثوبين أخضرين ، وأيضاً كما نبّه أهل العلم ليس المراد بالأخضرين أي الخضار البحث وإنما خضار مخطط بلون آخر . قال : ((وفي وقت جبة ضيقة الكمين)) ؛ جاء في بعض الروايات أنه أُهديت له جبة رومية ضيقة الكمين فلبسهما عليه الصلاة والسلام .

قال : ((وفي وقت قباء)) ؛ ذكر أهل العلم أن القباء نوع من اللباس يكون مفتوحاً من الورا .

((وفي وقت عمامة سوداء ، وأرخى طرفها بين كتفيه)) ؛ والعمامة معروفة .

قال : ((وفي وقت مرطاً أسود أي كساء)) ؛ والمرط : كساء طويل واسع يُتزر به ، فلبس عليه الصلاة والسلام في وقت مرطاً أسود ، وجاء في حديث عن عائشة رضي الله عنها قالت : ((حَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ غَدَاةٍ وَعَلَيْهِ مِرْطٌ مُرْحَلٌ مِنْ شَعْرِ أَسْوَدَ)) .

قال : ((ولبس الخاتم)) ؛ ومرّ معنا قريباً أنه لما أراد أن يُكاتب الملوك قيل له عليه الصلاة والسلام إنه لا يقبلون كتاباً إلا وعليه الخاتم ، فاتخذ عليه الصلاة والسلام خاتماً نُقش فيه « محمد رسول الله » .

ولبس عليه الصلاة والسلام ((الخف)) ؛ الخف : ما يستر القدم مع الكعب من الشعر أو الجلد .

ولبس عليه الصلاة والسلام ((النعل)) .

قال الإمام ابن كثير : ((انتهى ما ذكره)) أي ما ذكره الإمام النووي رحمه الله في كتابه تهذيب الأسماء واللغات في ذكر ملخص في صفة النبي عليه الصلاة والسلام الخلقية .

قال ابن كثير رحمه الله :

[وقال أنس بن مالك رضي الله عنه : " ما مسست ديباجاً ولا حريراً ألين من كف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا شممت رائحة قط أطيب من رائحة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولقد خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لي أف قط . ولا قال لشيء فعلته : لم فعلته ؟ ولا لشيء لم أفعله : ألا فعلت كذا ؟ " رواه مسلم . وقال عبد الله بن سلام : " لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة انجفل الناس إليه ، فلما نظرتُ إليه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب " صلى الله عليه وسلم صلاة دائمة إلى يوم الدين وسلّم تسليمًا كثيرًا] .

ثم نقل الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى هذا الحديث من صحيح مسلم عن أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان كثير الملازمة والخدمة للرسول عليه الصلاة والسلام .

فيقول رضي الله عنه : ((ما مسست ديباجاً ولا حريراً ألين من كف رسول الله صلى الله عليه وسلم)) ؛ الديباج : ضرب من ثياب الحرير طيب لين الملمس ، فيقول أنس رضي الله عنه : ما لمست ديباجاً ولا حريراً ألين من كف رسول الله ؛ أي أنه عليه الصلاة والسلام كفه ألين من الحرير والديباج .

قال : ((ولا شممت رائحة قط أطيب من رائحة رسول الله صلى الله عليه وسلم)) ؛ فكان طيب الرائحة صلوات الله وسلامه عليه ، ورائحته أطيب رائحة حتى قال خادمه وملازمه أنس رضي الله عنه وقد شم أنواع من الروائح الطيبة الجميلة الحسنة : ((ما شممت رائحةً أطيب من رائحة رسول الله صلى الله عليه وسلم)) .

قال : ((ولقد خدمتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لي أف قط)) ؛ يعني عشر سنوات كاملات يخدم النبي عليه الصلاة والسلام ما سمعه مرّة في هذه العشر سنوات قال له أف . والآن يأتي الإنسان بخادم لمدة يوم واحد يقول له أف عشرين مرّة ويشتمه و .. الخ !! فهذا فيه كمال أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم ورفيع آدابه وحسن تعامله حتى مع من هم يعملون في خدمته وملازمته عليه الصلاة والسلام .

((ولا قال لشيء فعلته : لم فعلته ؟ ولا لشيء لم أفعله : ألا فعلت كذا ؟)) ؛ يعني ما كان يُعاتبه ولا كان يلومه عليه الصلاة والسلام ، وهذا من كمال أدبه الرفيع وحُسن خلقه العالي ﷺ .

ثم ختم بالنقل عن عبد الله بن سلام ﷺ قال : ((لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس إليه)) ؛ يعني أسرع الناس إليه ﷺ .

((فلما نظرت إليه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب)) ؛ يعني من رؤيته لوجهه عرف أن هذا الوجه ليس بوجه كذاب على الناس فكيف يكذب على رب العالمين ويقول : أوحى إلي ولم يوح إليه !! حاشاه صلوات الله وسلامه وبركاته عليه .

وعبد الله ابن سلام ﷺ كان من أهل الكتاب وعنده علم بالكتاب ووقف على أوصاف النبي ﷺ في الكتاب ، فلما علم بمقدمه المدينة أول ما جاء عليه الصلاة والسلام في أول هجرة وانجفل الناس إليه ذهب ﷺ مباشرة مع الناس ولما رآه عليه الصلاة والسلام قال : "علمت أنه ليس بوجه كذاب".

وجاء في صحيح البخاري أنه قال للنبي عليه الصلاة والسلام : أسألك عن ثلاث أسئلة لا يجيب عنها إلا نبي ، وسأله ثلاث أسئلة ، ما هو أول أشرط الساعة ؟ وما هو أول طعام أهل الجنة ؟ وأيضاُ سأله عن شبه الإنسان لأبيه أو لأمه كيف يكون ؟ فقال له عليه الصلاة والسلام: أول أشرط الساعة نار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب ، وأول طعام أهل الجنة زيادة كبد الحوت ، وأما الشبه فيقول إذا سبق ماء الرجل ماء المرأة أشبهه ، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل أشبهه ؛ فآمن ﷺ به فوراً في ذلك المجلس ثم قال للنبي عليه الصلاة والسلام : إن اليهود قوم بُهت - يعني أهل كذب وافتراء - فأحضرهم قبل أن أعلن إسلامي واسألهم عني من أكون ومن أنا ؟ فاختمني ﷺ في البيت ودعوا اليهود فلما حضروا دعاهم عليه الصلاة والسلام للإسلام فأبوا ، قال ماذا يكون عبد الله ابن سلام فيكم ؟ قالوا : خيرنا وابن خيرنا وعلمنا وابن علمنا وسيدنا وابن سيدنا - أثنوا عليه ثناء عاطر - فقال عليه الصلاة والسلام : ما رأيكم لو أنه أسلم ؟ قالوا : حاشاه ولا يُمكن أن يُسلم . قال : أرايتم إن أسلم ؟ قالوا حاشاه لا يُمكن أن يسلم . فقال عليه الصلاة والسلام : أخرج عليهم ، فخرج وقال :

" أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله " ، فانقلبوا على عبد الله ابن سلام ورموه بالكذب وخرجوا دون أن يسلموا ، وهم قبل قليل في المجلس يثنون عليه وعلى مكانته .
وعبد الله ابن سلام كان من خيار الصحابة وشهد له النبي عليه الصلاة والسلام بالجنة ، حتى قال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه - وسعد من العشرة المبشرين - : ((مَا سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، يَقُولُ : لِأَحَدٍ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، إِلَّا لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ)) ؛ فيكون سعد ما سمع حينما قال الحديث إلا بشارة النبي عليه الصلاة والسلام لعبد الله رضي الله عنه بالجنة.

وبهذا الفصل ختم المصنف رحمه الله تعالى صفات النبي عليه الصلاة والسلام الظاهرة ، وقبل أن نتقل إلى الفصل الثاني نتوجه إلى الله تعالى ونسأله جل شأنه بكل اسم هو له وبأنه الله الذي لا إله إلا هو ، نسأله بأن له الحمد المنان الحي القيوم بديع السموات والأرض ذو الجلال والإكرام أن يُكرمنا أجمعين بمرافقة نبينا عليه الصلاة والسلام في جنات النعيم ، وأن يُكرمنا برؤية وجهه رضي الله عنه ومرافقته في جنات النعيم إنه جل شأنه خير مسؤول ونعم المأمول.

قال رحمه الله تعالى :

[فصل ؛ وأما أخلاقه الطاهرة فقد قال الله سبحانه : { ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنْتَ بِنِعْمَةٍ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ } {القلم: ١-٤} ، وفي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : " كان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن " ، ومعنى هذا أنه صلى الله عليه وسلم قد ألزم نفسه ألا يفعل إلا ما أمره به القرآن ، ولا يترك إلا ما نهاه عنه القرآن ، فصار امتثال أمر ربه خلقاً له وسجية ، صلوات الله وسلامه عليه إلى يوم الدين . وقد قال الله تعالى : { إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ } {الإسراء: ٩} فكانت أخلاقه صلى الله عليه وسلم أشرف الأخلاق وأكرمها وأبرها وأعظمها . فكان أشجع الناس وأشجع ما يكون عند شدة الحروب . وكان أكرم الناس ، و(كان) أكرم ما يكون في رمضان . وكان أعلم الخلق بالله ، وأفصح الخلق نطقاً ، وأنصح الخلق للخلق ، وأحلم الناس . وكان صلى الله عليه وسلم أشد الناس تواضعاً في وقار ، صلوات الله وسلامه عليه إلى يوم الدين . قالت قبيلة بنت محزمة في حديثها عند أبي داود : " فلما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم المتخشع

في جلسته (أرعدت) من الفرق . وفي السيرة أنه ﷺ لما دخل مكة يوم الفتح جعل يطأطئ رأسه من التواضع ، حتى إن مقدّم رحله ليصيب عنقونه ، وهو من شعر اللحية . وكان أشد حياء من العذراء في خدرها ومع ذلك فأشد الناس بأساً في أمر الله ، وروي عنه أنه قال ﷺ : " أنا الضحوك القتال " وهكذا مدح الله ﷺ أصحابه حيث قال تبارك وتعالى : { مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ } [الفتح: ٢٩] . وستأتي إن شاء الله تعالى بقية أوصافه الجميلة مستقصى فيما نوردته من الأحاديث بعد هذا إن شاء الله تعالى وبه المستعان [.

ثم عقد رحمه الله تعالى هذا الفصل في أخلاقه عليه الصلاة والسلام الطاهرة وآدابه الكاملة ومعاملاته العظيمة صلوات الله وسلامه عليه ، وقد كان عليه الصلاة والسلام يُعامل الناس معاملة رفيقة ، معاملة فيها الرحمة والشفقة واللين والتودد ؛ فكسب بذلك عليه الصلاة والسلام القلوب ولهذا قال الله : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩] .

فعقد الإمام ابن كثير رحمه الله هذا الفصل وذكر فيه خلاصة عن أخلاقه عليه الصلاة والسلام بدأ ذلك بقول ربنا جل شأنه : ﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ (١) مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ١-٤] ففي هذا يُقسم الله ﷻ على كمال خُلق النبي عليه الصلاة والسلام ، وقد جاء عن غير واحد من المفسرين الصحابة وغيرهم أن الخُلق : الدين ، فمعنى قوله ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ أي : على دين كامل .

وابن كثير رحمه الله لما نقل حديث عائشة : ((كان خلق الرسول ﷺ القرآن)) بين المعنى بياناً وافية فقال : ((ومعنى هذا أنه ألزم نفسه ألا يفعل إلا ما أمره به القرآن ، ولا يترك إلا ما نهاه عنه القرآن ، فصار امتثال أمر ربه خلقاً له وسجياً ، صلوات الله وسلامه عليه إلى يوم الدين)) ؛ ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ : أي دين كامل ، ودينه وخلقه

القرآن بمعنى أنه عليه الصلاة والسلام التزم التزاماً تاماً كاملاً ما جاء في كتاب الله ؛ فالأوامر يَأْتَمِرُ بِهَا عَلَى التَّمَامِ وَالْكَمَالِ ، والنواهي يَجْتَنِبُهَا غَايَةَ اجْتِنَابِ وَيَتَعَدَّ عَنْهَا غَايَةَ الْإِبْتِعَادِ .

قال : ((وقد قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء:٩] فكانت أخلاقه ﷺ - الأخلاق الموجودة في القرآن الكريم - أشرف الأخلاق وأكرمها وأبرها وأعظمها)) ؛ لأن خلقه القرآن ، والقرآن يهدي للتي هي أقوم ، فكان عليه الصلاة والسلام في أخلاقه وهديه عليه الصلاة والسلام أشرف الخلق خُلُقاً وأكرمهم وأبرهم وأعظمهم .

قال : ((فكان أشجع الناس)) ؛ وهذا تفصيل بعد إجمال .

((وأشجع ما يكون عند شدة الحروب)) ؛ يعني في المواطن التي يخاف فيها كثير من الناس أو يفر فيها كثير من الناس كان عليه الصلاة والسلام أشجع الناس ، ومرّ معنا في غزوة حنين لما فرّ الناس واشتد عليهم النبل كان النبي عليه الصلاة والسلام على البغلة ويتقدم ، ولم يكن حوله إلا عشرة تقريباً من الصحابة ، وأمر العباس أن ينادي ، فأخذ ينادي يا معشر الأنصار .. يا معشر أهل الشجرة .. ؛ فبدؤوا يرجعون ، والنبي عليه الصلاة والسلام كان ماضياً على البغلة يتقدّم ، فكان عليه الصلاة والسلام أشجع الناس .

جاء في الصحيح عن أنس قال : « كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحْسَنَ النَّاسِ ، وَكَانَ أَجْوَدَ النَّاسِ ، وَكَانَ أَشْجَعَ النَّاسِ » وذكر مثلاً بديعاً على شجاعته عليه الصلاة والسلام قال : « وَلَقَدْ فَزَعَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ ذَاتَ لَيْلَةٍ ، فَأَنْطَلَقَ نَاسٌ قِبَلَ الصَّوْتِ ، فَتَلَقَّاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَاجِعًا وَقَدْ سَبَقَهُمْ إِلَى الصَّوْتِ ، وَهُوَ عَلَى فَرَسٍ لِأَبِي طَلْحَةَ عُرِيٍّ ، فِي عُنُقِهِ السَّيْفُ وَهُوَ يَقُولُ : لَمْ تُرَاعُوا ، لَمْ تُرَاعُوا » ؛ يعني لا تخافوا لا يوجد شيء ، فكان عليه الصلاة والسلام أول شخص انطلق إلى جهة الصوت ثم الصحابة تلاحقوا منطلقين فقابلهم عليه الصلاة والسلام راجعاً ويقول : لم ترعوا لم ترعوا ؛ فهذا من أدل ما يكون عن أنه عليه الصلاة والسلام أشجع الناس ، ليس شجاعاً فقط وإنما كان أشجع الناس صلوات الله وسلامه عليه .

((وكان أكرم الناس ، وكان أكرم ما يكون في رمضان)) ؛ وكان عليه الصلاة والسلام في جوده في رمضان وسخائه وعطاءه كالريح المرسلة ، والحديث بذلك مُخْرَجٌ فِي الصَّحِيحِينَ .

((وكان أعلم الخلق بالله)) ؛ وقد صحَّ عنه أنه قال : ((إِنَّ أَنْتَقَاكُمْ وَأَعَلَمَكُم بِاللَّهِ أَنَا)) ؛ فكان ﷺ أعلم خلق الله بالله . وليس هناك من خلق الله أعلم بالله منه عليه الصلاة والسلام .

((وأفصح الخلق نطقاً)) ؛ فصيح اللسان ﷺ . فأمر من أمور الدين يريد بيانه يبينه بغاية الفصاحة وبغاية البيان وبغاية الوضوح .

((وأنصح الخلق للخلق)) ؛ كان ناصحاً ، ما ترك خيراً إلا دل الأمة عليه .

وهذه الصفات الثلاثة مهم أن تعرفها - أيها المسلم - وأن تحفظها ، فهي تفيدك فائدة عظيمة في رد البدع ؛ إذا دعاك إنسان إلى بدعة وأمر لا دليل عليه ولا أصل له في الشرع تسأله السؤال الأول تقول له : هذا الأمر الذي تدعوني إليه هل النبي ﷺ علماً به أو ليس علماً ؟ إن قال : ليس علماً - يعني هناك أمر من الدين يعلمه هذا ، والنبي عليه الصلاة والسلام لا يعلمه - فهذه طامة الطوام تدل على غاية سفهه وضلاله . فإن قال : النبي ﷺ عالم بهذا الأمر ، تسأله السؤال الثاني : هل هذا الأمر أفصح عنه عليه الصلاة والسلام ويبيته ؟ أو كان علماً به ولم يكن قادراً على الإفصاح عنه وبيانه ؟ فإن قال : نعم هو عالم به ولم يكن قادراً على الإفصاح عنه هذه طامة أخرى - يطعن في فصاحته وبيانه عليه الصلاة والسلام !! - فإن قال : هو عالم به وأيضاً قادر على الإفصاح عنه وبيانه عليه الصلاة والسلام تسأله السؤال الثالث : هل أفصح عنه وأبانه ونصح للأمة بذلك ؟ أو أنه لم يفصح عنه ولم يُبَّنه وأبنته أنت والآخرون ؟ ؛ فيكون هنا طعن في نصحه .

ولهذا من يدعو إلى البدعة لا يخلوا من ثلاث : إما أن يطعن في علم النبي عليه الصلاة والسلام ، أو يطعن في فصاحته وبيانه ، أو يطعن في نصحه ﷺ . فإذا أيقن الإنسان أنه أعلم الخلق بالله ، وأنه أفصح الناس لساناً وبيانا ، وأنه أنصح الخلق للخلق ، فالواجب الاقتصار على ما جاء عنه وصرح عنه وثبت عنه ﷺ ، وإطراح ما سوى ذلك مما اخترعه المخترعون وتكلفه المتكلفون .

قال : ((وأحلم الناس)) ؛ أيضا كان عليه الصلاة والسلام حليماً ، وشواهد حلمه عليه الصلاة والسلام في سنته كثيرة .

قال: ((وكان أشد الناس تواضعاً في وقار ، صلوات الله وسلامه عليه إلى يوم الدين)) ؛
وسياتي ذكر مثال لتواضعه عليه الصلاة والسلام .

((قالت قبيلة بنت مخزومة في حديثها عند أبي داود : " فلما رأيت رسول الله ﷺ المتخشع
في جلسته أرعدت من الفرق)) ؛ يعني كان مُتخشعاً وأيضاً كان له هيبة ووقار ومكانة في
النفوس عليه الصلاة والسلام .

وقبيلة رضي الله عنها لها قصة طويلة وجميلة وممتعة أيضاً في قصة إسلامها ، والإمام الترمذي
في كتابه الشمائل أورد مقاطع من حديثها الطويل وفيه تنقلها إلى أن جاءت المدينة ، وقبل
أن ترى النبي عليه الصلاة والسلام ، هذه الرؤية كانت في الضحى بعد أن أسفر ، لكن
وصلت إلى المسجد النبوي وقت صلاة الفجر - كما جاء في قصتها - ودخلت المسجد
وإذا الناس صفوف يصلون فتقدمت وصفت مع الرجال ، وقفت إلى جنب رجل ألصقت
كتفها بكتفه - هي لا تدري عن شيء - ، فلما لصق كتفها بكتفه أحس بليونته فالتفت
عليها وقال : أنت رجل أو امرأة ؟ قالت : أنا امرأة . قال: اذهبي عني لا تفتنيني - وانتبه
هنا ؛ في صلاة وفي المسجد وخلف الرسول عليه الصلاة والسلام ويقول للمرأة : اذهبي عني
لا تفتنيني !! ، وهذا من الدلائل الواضحة على أن المرأة وقربها من رجل والتصاقها به فتنة
ولو كان في المسجد ، ولو كان خلف الرسول عليه الصلاة والسلام وبين الصحابة الكرام ،
فكيف إذا التصق الرجل بالمرأة في السوق ويريد أن يسلم من الفتنة؟! وهذه من مصائب
الزمان وبلايا هذا العصر ، الاختلاط الشديد بين الرجال والنساء وجرّ على الناس فتن
عظيمة وكثيرة جدا - فالرجل لما أحس بالجسم ، ليس بالجسم الذي اعتاد أن يكون ملاصقاً
له في الصلاة التفت عليها ، قال : أنت امرأة أو رجل ؟ قالت أنا امرأة ، قال: اذهبي عني لا
تفتنيني ، أنظري إلى النساء ، تقول : فالتفت وإذا عند الحجرات صف للنساء ما انتبهت له
، فذهبت وشففت مع النساء ، ثم بقيت في المسجد حتى الضحى وكان عليه الصلاة
والسلام بقي في مصلاه . فتقول هنا كما جاء في الجزء الذي أورده ابن كثير ((رأيت رسول
الله المتخشع في جلسته)) يعني جالس جلسة مُتخشع عليه الصلاة والسلام ، وفي الوقت
نفسه تقول ((أرعدت من الفرق)) ؛ جمع الله له بين التواضع والوقار صلوات الله وسلامه
وبركاته عليه .

ثم نقل ابن كثير قال : ((وفي السيرة أنه ﷺ لما دخل مكة يوم الفتح جعل يطأطئ رأسه من التواضع ، حتى إن مقدّم رحله ليصيب عنثونه وهو من شعر اللحية)) ؛ المقدّم : أسفل الرجل ، يعني يكاد يلمس أسفل الرجل شعر لحيته عليه الصلاة والسلام من شدة طأطأته لرأسه عليه الصلاة والسلام تواضعا لله ﷻ .

وابن كثير رحمه الله في كتابه البداية والنهاية لفت لفتة جميلة جداً أنقلها لكم ؛ يقول رحمه الله : " وهذا التواضع في هذا الموطن عند دخوله ﷺ مكة في مثل هذا الجيش الكثيف العرمم بخلاف ما اعتمده سفهاء بني إسرائيل حين أمروا أن يدخلوا باب بيت المقدس - حين الفتح - وهم سجدوا أي رُكع يقولون حطة - أمرهم الله أن يدخلوا بهذه الصفة سجداً أي ركعاً ويقولون حطة أي حُطَّ عنا خطايانا - فدخلوا يرجعون على آستاهم ويقولون حنطة في شعيرة " . فرق شاسع بين هؤلاء وبين نبينا الكريم عليه الصلاة والسلام ومن يكرمه الله ﷻ من أمته بالتواضع في المقامات العالية التي يغتر فيها كثير من الناس ويتعاضم ويترفع .

قال : ((وكان أشد حياءً من العذراء في خدرها)) ؛ العذراء : هي البنت التي أقبلت على سن الزواج يعني ثلاثة عشر سنة أربعة عشر سنة في ذلك الوقت يقال لها ذوات الخدور لأنها تلازم الخدر ولا يراها الرجال ، وتستحي حتى من ظلّها ولا تُقابل رجال ودائماً تكون متخفية مستترّة محتشمة وبعيدة عن رؤية الرجال . أما الآن من كان عمرها ثلاثة عشر سنة أربعة عشر سنة عينها في عين الرجل وتتحدث معه بصفة أُرْجَل منه ربما ، وترفع صوتها عليه وتخطبه وتتكلم مع البائع وترفع صوتها والحياء منزوع تماماً ، ويقولون هذه صغيرة وسفيهة ولا تفهم ولا تعرف !! بينما كانت من كان عمرها ثلاثة عشر سنة أربعة عشر سنة مضرب المثل في الحياء ، إذا أرادوا أن يضربوا المثل في الحياء لا يجدون أروع ولا أجمل من ذوات الخدور ، حتى إن الصحابة لما كانوا في هذا المقام الذي ينتقون فيه أعلى درجات الحياء لبيّتوا حياء النبي عليه الصلاة والسلام قالوا : «أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ الْعَذْرَاءِ فِي خَدْرِهَا» لأن العذراء في خدرها مضرب مثل عظيم في الحياء . ونسأل الله الكريم ربّ العرش العظيم وهو المانّ المتفضل لا شريك له أن يرزق بناتنا ونساءنا الحياء والحشمة إنه تبارك وتعالى سميع مجيب .

قال : ((ومع ذلك فأشد الناس بأساً في أمر الله)) ؛ يعني مع حياءه الشديد صلوات الله وسلامه عليه ، في الأمور التي تتعلق بحقوق الله ﷻ يغضب غضباً شديداً ولا يقوم لغضبه

ﷺ شيء ، و يقيم الحدود ، و يقيم الحقوق ، و يؤدي الأمور على أتم ما يكون ولا يمنعه حياؤه ﷺ من ذلك .

قال : ((وروي عنه)) ؛ وقوله (رُوي) هذا من صيغ التضعيف والتبريض عند العلماء .
((وروي عنه أنه قال: " أنا الضحوك القتال ")) ؛ هذا لم يثبت عن النبي عليه الصلاة والسلام في حديث يُرفع إليه ، لكن كما جاء في بعض كتب السير ومنها سبل الهدى والرشاد للصالحي وغيره من مصادر عديدة ينقلون ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : ((أسماء النبي ﷺ في التوراة : الضحوك والقتال)) ؛ ومعنى الضحوك القتال كما ذكر ذلك ابن كثير رحمه الله في كتابه التفسير: " أنه ضحوكٌ في وجه وليه ، قتال لهامة عدوه"
قال : ((وهكذا مدح الله ﷺ أصحابه)) ؛ يعني بهذه الصفة .

((حيث قال تبارك وتعالى : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح: ٢٩])) قوله : ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ مثل الضحوك القتال ، يعني بينهم رحماء ، وعلى الكفار أعداء دين الله ﷺ أشداء .

قال جل وعلا : ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَزِعٍ أُخْرِجَ شَطَاطُهُ فَازَرَهُ فَاسْتَعَاظَ فَاسْتَوَى عَلَى سَوْقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴾ ؛ وهذا ثناء عاطر من رب العالمين ﷺ - في كتابه التوراة الذي أنزله على موسى وفي كتابه الإنجيل الذي أنزله على عيسى - على الصحابة الكرام قبل أن يوجدوا وقبل أن يُخلقوا وقبل أن يدرجوا على الأرض رضي الله عنهم وأرضاهم . وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تمدح الصحابة وتثني عليهم وتبين مآثرهم العظيمة ، ومن مآثرهم هذا المآثر العظيم ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ .

ثم ختم رحمه الله تعالى هذا الفصل بقوله : ((وسيأتي إن شاء الله تعالى بقية أوصافه الجميلة مستنقضى فيما نورده من الأحاديث بعد هذا إن شاء الله تعالى وبه المستعان)) .